

القيم الأخلاقية في العصر الجاهلي

The moral values in the Pre-Islamic era

د. بن لحسن عبد الرحمان

Dr. Benlahcen Abderrahmane

جامعة طاهري محمد بشار

Tahri Mohamed University of Bechar

benlahcenabderrahmane@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2020 / 01 / 20 تاريخ القبول: 2020 / 05 / 26 تاريخ النشر: 2020 / 06 / 11

ملخص:

القيم الأخلاقية في العصر الجاهلي تعبر عن مجتمع منسجم ومتماسك يحافظ على علاقاته وتربطه، يصرّ على المحافظة عليها والافتخار بها، والإسلام أقرها وحبّها ومنها: الكرم من الصفات الحمودة عند العرب، مجّد صاحبها وخلّدته في شعرها، ورفعت مكانته فنصّبته سيّداً عليها، وأصبح مثلاً سائراً في أمثالها. والشجاعة عند العربي لا تقل مكانة عن الكرم، فكما جعلت الصحراء العربي كريماً جعلت منه رجلاً شجاعاً يعاين المعارك، وينازل الأعداء. وإذا ذكرنا الشجاعة ذكرنا شعرنا القديم الذي تفتّن في رسمها بمختلف صورها، أما الوفاء فقد حرصت العرب على هذه الصفة حرصاً شديداً، وجعلت لمناقضها عداءً كبيراً فشهرت به في أسواق عكاظ، ورفعت الرّايات باسمه حتّى يُعرف بين النّاس فتتجنب المعاملة معه و تحب قطيعته. والمروءة إذا تحدّثنا عن الصفات الأخلاقية جمعناها في المروءة، فالمروءة أن تجتمع كلّ الصفات الحسنة في الشخص الواحد، وقد نراها جليّة عند عنتر بن شداد، ويكفي أن الرّسول (ص) أعجب بأخلاقه لقوله عليه الصلاة والسلام: (ما وصف لي أعرابي قط فأحببت أن أراه إلّا عنتر). وبالتالي لا بدّ من طرق هذه الصفات للعبرة والاتّصاف بها والسير على نهجها وغرسها في مجتمعنا والإشادة بها.

كلمات المفتاحية: الكرم، الشجاعة، المروءة، الوفاء، القيم، الأخلاق، التماسك.

Abstract:

The moral values in the Ignorance (aljahilia) era expresses a harmonious and coherent society that preserves its relations and attachment insisting on pride and preservation, and Islam has approved and favored it: “generosity is one of the commendable qualities to the Arabs, a generous person is immortalized and glorified in their poetry, this quality has raised the individuals status and made him a master and a modal.

The courage of the Arab is not less important than generosity, as the desert makes him generous, he is also courageous, a person who took part in battles and

overcame foes. For loyalty, the Arabs take care of this quality very carefully and make the traitor or the perfidious known in okad market and raised his name in banners so as to be known among people and boycotted.

Manliness and chivalry gather all the moral values and we can see these qualities at Antara ibn shaddad and the prophet "peace be upon him" admired his qualities and behavior when he says: "If anyone was described to me I would have liked to see him only as Antara

Keywords: Generosity, courage, virility, loyalty, values, morals, cohesion.

المؤلف المرسل: الدكتور بن الحسن عبد الرحمن، الإيميل: benlahcenabderrahmane@gmail.com

1- الكرم:

الكرم من الصفات المحمودة عند العرب، مجدت صاحبه وخلدته في شعرها ورفعت مكانته فنصبته سيداً عليها، وأصبح مثلاً سائراً في أمثالها حتى بعد وفاته، يقول حاتم الطائي:

يَقُولُونَ لِي أَهْلَكْتَ مَالَكَ فَأَقْتَصِدَ وَمَا كُنْتُ لَوْلَا مَا تَقُولُونَ سَيِّدًا 3

ويقول طرفة:

فَإِنْ مِتُّ فَأَنْعَتْنِي بِمَا أَنَا أَهْلٌ لَهُ وَشَقِيَّ عَلَيَّ الْجَيْبُ يَا ابْنَةَ مَعْبَدٍ

وما عُرف العربي القدم بشيء كما عُرف بكرمه فهو تغور في الصحراء وأدرك مخاطرها، ورحل فيها على دابته واستشعر مهالكها، فهو ولا بد في رحلته محتاج إلى نزل يرتاح فيه يضمن له المأكل والمشرب والراحة، وهو بذلك يكرم ليكرّم، ويضيف ليستضاف، لذلك يقول أحد شعراء الحماسة:

وَلَا تَحْرِمِ الْمُؤَلَى الْكَرِيمَ فَإِنَّهُ أَحْوَكُ وَلَا تَذْهَبِ لَعَلَّكَ سَائِلُهُ

ويقول عدّي بن زيد:

وَأَنْتَ لَا تَذْهَبِ إِذَا جَاءَكَ سَائِلٌ أَأَنْتَ بِمَا تُعْطِيهِ أَمْ هُوَ أَسْعَدُ

عَسَى سَائِلٌ دُوحَاةٍ إِنْ مَنَعْتَهُ مِنْ الْيَوْمِ سُؤلاً أَنْ يَكُونَ لَهُ عَدَا 4

والكرم محمودة للذكر حتى بعد الموت⁵، وهذا بن عاصم المنقري يوصي زوجته إذا حضرت الطعام أن تطلب له أكلاً، فهو يخشى أن يُتهم بالبحل ولو حتى بعد وفاته:

أَيَا ابْنَةَ عَبْدِ اللَّهِ وَابْنَةَ مَالِكٍ وَيَا ابْنَةَ ذِي الْبُرْدَيْنِ وَالْقُرْسِ الْوَرْدُ

إِذَا مَا أَصَبْتَ الرَّادَّ فَالْتَمِسْ لَهُ أَكِيلاً فَلَيْ غَيْرَ أَكَلُهُ وَخَدِي

قَصِيّاً كَرِيماً أَوْ قَرِيباً فَإِنِّي أَخَافُ مُدَّ مَاتِ الْأَحَادِيثِ بَعْدِي

ولربما كانت تسعد نفسه لمساعدة المحتاج لإشفاقه على حال الصحراء القاحلة، قليلة الماء والمنبت، يقول الحادرة:

وَلَدَى زَهْطٍ أَشْعَثُ بَاسِطٌ لِيَمِينِهِ قَسَمًا لَقَدْ انْصَحْتُ لَمْ يَتَوَرَّعْ
وقد غُئيت العرب بالضيف عناية لا نظير لها، فهاهو العربي يضرم النار في أعالي السفوح ليستهدي بها الضال في الطريق، ويظفر بضيفته، يقول حاتم لعلامه:

أَوْقِدْ لِيَرَى نَارَكَ مَنْ يَمُرُ وَإِنْ جَاءَنَا ضَيْفٌ فَأَنْتَ حُرُ
أَوْقِدْ فَإِنَّ اللَّيْلَ لَيْلٌ قَرَوُ الرِّيحُ يَا غُلَامَ رِنُحْ صَرُ
عَسَى يَرَى نَارَكَ مَنْ يَمُرُ إِنْ جَلَبْتَ ضَيْفًا فَأَنْتَ حُرُ6

ويقول عوف بن الأحوص:

وَمُسْتَنْبَحٌ يَخْشَى الْقَوَاءَ وَدُونَهُ مِنَ اللَّيْلِ أَبَا ظُلْمَةٍ وَسُورِهَا
رَفَعْتُ لَهُ نَارِي فَلَمَّا اهْتَدَى بِهَا زَجَرْتُ كِلَابِي أَنْ يَهَرَّ عُقُورُهَا
فَلَا تَسْأَلْنِي وَاسْأَلِي مَنْ خَلِيقَتِي إِذَا رَدَّ عَنِّي الْقَدَرُ مَنْ يَسْتَعِيرُهَا
تَرَى قَدْرِي لَا تَزَالُ كَانَتْهَا لِذِي الْعَزْوَةِ الْمُقْرُورِ لَاحَ بِشِيرِهَا
إِذَا السَّوْلُ رَاحَتْ ثُمَّ لَمْ يَفِدْ حُمَهَا بِالْأَبَانِهَا ذَقَّ السَّامَ عَقِيرُهَا7

ويذهبون إلى أكثر من ذلك فقد تكون نار القرى بمدلٍ رطبٍ فتشيع رائحته لتجلب الضيف حيثما كان، فإذا وصل إليهم تبسطوا له بالحديث وأحسنوا استقباله 8. قال حاتم:

سَالِ الْجَائِعَ الْعَرْتَانَ يَا أُمَّ مُنْذِرِ إِذَا أَتَانِي بَيْنَ نَارِي وَبَحْرِي
هَلْ أَبْسُطُ وَجْهِي إِنَّهُ أَوَّلُ الْقَرَى وَأُبْذِلُ مَعْرُوفٍ لَهُ دُونَ مُنْكَرِ9

وقال عروة بن ورد العبسي أو عتبة بن يحيى:

فِرَاشِي فِرَاشَ الضَّيْفِ وَالْبَيْتُ بَيْتُهُ وَلَمْ يُلْهِنِ عَنْهُ غَزَلٌ مُقْنِعِ
أُحَدِّثُهُ إِنْ الْحَدِيثَ مِنَ الْقَرَى وَتَعَلَّمُ نَفْسِي أَنَّهُ بَحْجَ10

وقد تجوّدت العرب بأحسن ما جادت به صحراؤها فنحرت نوقها وأفراسها 11، وفي ذلك يقول امرؤ القيس:

يَوْمَ عَقَرْتُ لِلْعَذَارَى مَطِيَّتِي فَيَا عَجَبٌ لِرِخْلَيْهَا الْمُتَحَمِّلِ
فَطَلَّ الْعَذَارَى يَرْقَمِينَ بِحَمْلِهَا وَشَحِمَ كَهْدَابِ الدَّمَقْسِ الْمُفْتَلِ12

وقال مضر بن ربيعة بعدما قدم لضيفه " دهن سنام البعير " وكان عندهم من أنفس ما يقدم للضيف، يقول:

وَإِنِّي لَأَدْعُو الضَّيْفَ بِالضَّوِّ بَعْدَمَا كَسَا الْأَرْضَ نَضَاحُ الْجَلِيدِ وَجَاهِدَه

لَأُكْرِمَهُ إِنَّ الْكَرَامَةَ حَقُّهُ وَمَثَلَانِ عِنْدِي قُرْبَةٌ وَتَبَاغُدُهُ

أَبِيتُ أَغْشِيهِ السَّدِيفَ وَإِنِّي بِمَائِلٍ حَتَّى يَثْرُكَ الْحَيَّ حَامِدَهُ

ومما سبق من الأبيات يظهر قيمة الكرم عند العرب وكم رفعت شأنه، وزينت استضافاتها بأنفس ما عندها، فنحرت النوق مادام الضيف عندها، بل أتبع ذلك كله بمدايا لضييفها. وقد بلغ الكرم عند العرب مبلغاً كبيراً فلا يكبر في نفسه أن يُطعم ضيفه ويبيت هو جائع، وهذا ما حدث لحاتم الطائي بعدما جاء بفرسه لجارته التي أتت تشكو إليه الجوع¹³ فأكل القوم منها إلا هو، يقول:

مَهْلًا نَوَارَ أَقْلِي اللَّوْمَ وَالْعَدْلَا وَلَا تُقُولِي لِشَيْءٍ فَاتَ مَا فَعَلَا

وَلَا تُقُولِي لِمَالٍ كُنْتُ مُهْلِكُهُ مَهْلًا وَإِنْ كُنْتُ أُعْطِيَ الْإِنْسَ وَالْحَبْلَا

يَرَى الْبَحِيلَ سَبِيلَ الْمَالِ وَاحِدَةً إِنَّ الْجَوَادَ يَرَى فِي مَالِهِ سُبْلًا¹⁴

ولربما يكون الكرم صفة عادية إلا أنه قد يكتسب ميزة خاصة، وذلك عندما يكون في أيام القحط والجفاف وأيام البرد، وخاصة إذا كان على المستضعفين في الأرض من النساء والأرامل واليتامى¹⁵. قال أوس بن حجر في رثاء فضالة بن كعدة:

أَبَا ذَلِيجَةَ مَنْ يُوصِي بِأَرْمَلَةٍ أُمُّ لَأَشْعَتِ ذِي هِذْمٍ يَنْطِمِلُ¹⁶.

ولعلَّ منتهى الجود عندما يجود الإنسان بنفسه فهذا كعب بن مامة الإيادي مات عطشاً بعدما أعطى ما عنده من الماء لصديقه. وروي أن رجلاً من طيء أنه استضاف رجلاً ثلاثة أيام وكان يذبح له في كل يوم ناقة، وعندما شعر حاجة ضيفه خيرَه من نوقه عشرين ناقة، فلما كان منه ذلك قال فيه الرجل: "و الله ما رأيت رجلاً أكرم ضيفاً، ولا أهدى سبيلاً، ولا أرمي كفاً ولا أوسع صدرًا ولا أرغب جوفاً، ولا أكرم عفواً منك".¹⁷

2 الشجاعة:

والشجاعة عند العربي لا تقل مكانة عن الكرم، فكما جعلت الصحراء بالعربي كرم جعلت منه رجلاً شجاعاً يعاين المعارك، وينازل الأعداء. وإذا ذكرنا الشجاعة ذكرنا شعرنا القديم الذي تفتن في رسمها بمختلف صورها يقول طرفة:

إِذَا سَأَلَ الْقَوْمُ: مَنِ الْفَتَى؟ حَلْتُ أُنِّي عُيْتُ فَلَمْ أَكْسَلِ وَلَمْ أَتَلَبَّدْ¹⁸

يصف الشاعر حالة من اندفاعه وعدم تأخره أو توانيئه، فهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدلُّ على شجاعته

وقوته.

كرهت العرب الجبن وهجت صاحبه وحقرته ورفعت الشجاعة وأثنت على صاحبها بأحسن الصفات،

تقول الخنساء¹⁹

حَامِي الْحَقِيقَةِ تَحَالُهُ عِنْدَ الْوَعَى أَصْدًا بِمِشَّةٍ كَاشِرِ الْأَنْبَابِ

فقد شبهت أحابها بالأسد الضاري يكشر أنيابه أمام أعدائه، وتصفه أ يضائي قصيدة أخرى وتشبهه بالليث تقول:

أَشْجَاعُ أَنْتَ أَشْجَعُ مِنْ لَيْثٍ عَرِينٍ ذِي لِبْدَةٍ وَشِبَالٍ
وإذا كان الإنسان يخشى بطبعه موت القتال فإن العربي يخشى موت الفراش، وسمته موت " حتف الأنوف" 20 يقول السموأل:

إِنَّا لَقَوْمٌ لَا نَرَى الْمَوْتَ سَبَةً إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرًا وَسَلُولُ
يُقَرَّبُ حُبُّ الْمَوْتِ جَالَتَا وَتَكَرُّهُمُ آجَالُهُمْ فَتَطُولُ
وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتَفَ أَنْفِهِ وَلَا طَلَّ مِنَّا حَيْثُ كَانَ قَتِيلٌ
تَسِيلُ عَلَى حَدِّ الطُّبَاةِ نُفُوسُنَا وَلَيْسَ عَلَى غَيْرِ الطُّبَاةِ تَسِيلُ 21
فشاعر يفخر بموت في ساحات الوغى، بل إنه وقومه لتشتهي أنفسهم الموت، فيما قد يتمنى غيرهم أن يُعمر طويلاً.
ويقول عنتره:

بَكَرْتُ تُخَوِّفُنِي الْخُوفَ كَأَنِّي أَصْبَحْتُ عَنُورُ الْخُوفِ بِمَعَزَلٍ
فَأَجَبْتُهَا إِنَّ الْمَيَّةَ مِنْهَلٌ لَا بُدَّ أَنْ أُسْقَى بِكَاسٍ مِنْهَلٍ
فَاقْنِي حَيَاؤُكَ . لَا أَبَالُكَ . وَأَعْلَمُ إِنِّي امْرُؤٌ سَأُمُوتُ إِنْ لَمْ أَقْتَلِ
وَإِذَا حُمِلْتُ عَلَى الْكَرْبَةِ لَمْ أَقُلْ بَعْدَ الْكَرْبَةِ لَيْتَنِي لَمْ أَفْعَلِ 22
وما يفسر الإقدام على الموت عند العربي هو أنه كان يؤمن بأنه ميتاً محال، لذلك كان يتخير ميتة الشجعان على أن يموت ميتة الجبناء.

قال الحصين بن الحمام:

تَأَخَّرْتُ أَسْتَبِقُ الْحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَنْ أَتَقَدَّمَ 23
ويقول عروة بن البرد:

إِذَا قِيلَ يَا ابْنَ الْوَرْدِ أَقْدِمْ إِلَى الْوَعَى أَجَبْتُ فَلَا قَانِي كَمِي مُقَارِعَ 24
وافتخرت العرب بالشجاع الذي يُقَارِعُ في الحرب حتى آخر لحظة 25 يقول متمم بن نويرة واصفا أخاه في الحرب يقول:

وَإِنْ ضَرَسَ الْعَدُوُّ الرَّجَالَ رَأَيْتُهُ أَخَا الْحَرْبِ صِدْقًا فِي اللَّقَاءِ سَمِيدًا
فَمَا أَنَا مِمَّا جَرَتْ الْحَرْبُ مُشْتَكٍ وَلَا أَنَا مِمَّا أَحْدَثَ الدَّهْرُ جَارِعَ 26

والفلسفة التي يحتنك لها العربي هي التي جعلت منه صنديدا، مقداماً لا يخشى الموت، وقد لا ننكر على العربي شجاعته مادام قد مجدها عند أعدائه، قال مالك بن حطان في يوم قشاة وقد انهزم:

وَمَا ذَنْبُنَا إِذَا لَقَيْنَا قَبِيلَهُ إِذَا وَآكَلَتْ فُرْسَانُنَا لَا تَوَاكُلُ
يُسْمُونَنَا كَأَسَا مِنَ الْكَأْسِ مُرَّةً وَغُرَّ دَعْنَا الْمُهْمُرُ نَوَالِحَنَا كِلَ

وكانت العرب إذا أرادت إغاثة ملهوف لم تسأله، وإنما اندفعت إلى مساعدته، وقد يدافع عن هذا الرأي استغاثه قد يطلقها عبد المالك بن مروان ليغيثه ألف سيف اندفاعاً دون معرفة السبب²⁴. قال قريط بن أنيف:

قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَبْدَى نَاجِدِيهِ هُمْ طَارُوا إِلَيْهِ زَرَافَاتٍ وَوَحْدَانَا
لَا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانَا²⁷

وقد ساد بينهم أن قبول الدية على القتل درب من دروب الجبن، فكانت نساء القبيلة أكثر تحريضاً على القتل والثأر²⁸، قالت أم عمرو بنت وقدان عندما رادت عشيرتها قبول الجزية من قبيلة أخرى:

إِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَطْلُبُوا بِأَخِيكُمْ فَذَرُوا السَّلَاحَ وَحُشُّوا بِالْأَبْرِقِ
وَحُدُّوا الْمَكَاحِلَ وَالْمَجَاسِدَ وَالْيَسُوسَا نُقِبَ النِّسَاءِ فَبِئْسَ رَهْطُ مُرْهَقِ²⁹

وكانت العرب لا تخشى عدد القتلى وإنما تتباهى به؛ وذلك برهان لها على شجاعتها ومزاوتها المعارك، قال المرقش الأكبر:

إِنِّي لَمَنْ مَعَشَرَ أَقْنَى أَوَائِلُهُمْ قِيلَ لِلْكَمَاةِ: أَلَا أَيْنَ الْمَحَامُؤُنْ ؟
لَوْ أَنَّ كَانَ فِي الْأَلْفِ مِنَّا وَاحِدٌ فَدَعُوا مِنْ فَارِسٍ ؟ خَالَهُمْ إِيَّاهُ يَغْنُونُ³⁰

وأشد ماكرهت العرب الهوان والضعف، فكما خلدت الشجاعة ومجدتها، ذمت الضعف وحطت من قيمة قبيلته²⁹، يقول قريط بن أنيف:

لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي حَسَبٍ لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا
يُجَزُّونَ مَنْ ظَلَمَ أَهْلَ الظُّلَمِ مَغْفِرَةً وَمَنْ إِسَاءَةَ أَهْلِ السَّوْءِ إِحْسَانًا
كَأَنَّ رَبَّكَ لَمْ يَخْلُقْ لِحَشِيَّتِهِ سَوَاهُمْ فِي جَمِيعِ النَّاسِ إِنْسَانًا³¹

ومن هنا يبدو لنا نغم الشاعر على قبيلته إذ لا تسترد حقاً لها بل تقابل من ظلمها بإحسان واستكانة، فاحتقرها نفسه وقد تخلفت عن القبائل الأخرى وجبنت على رغم من كثرة عددها. وإذا ذكرنا الشجاعة ذكرنا عنزة بن شداد وهو الذي يقول في معلقته:

أَنْنِي عَلَيَّ بِمَا عَلِمْتَ فَإِنِّي سَمَحْتُ مُخَالَقَتِي إِذَا لَمْ أَظْلِمِ
فَإِذَا ظَلِمْتُ فَإِنَّ ظُلْمِي بِأَسْلٍ مُرٌّ مَذَاقُهُ كَطَعْمِ الْعَلْقَمِ

ومروءته تمنعه من أن يظلم، ولكنَّه إذا ظلم يرد الظلم بظلم، ببسالة وقوة لا يجابهها أحد.

3- الوفاء:

حرصت العرب على هذه الصفة حرصاً شديداً، وجعلت لمناقضها عداءً كبيراً فشهرت به في أسواق عكاظ، ورفعت الرايات باسمه حتى يُعرف بين الناس فتجنب المعاملة معه وتجنب قطيعته، يقول الحادرة:

أَسْمَى وَيُحَلِّ هَلْ سَمِعْتَ بِعَدْرَةٍ رُفِعَ اللِّوَاءُ لَنَا بِهَا فِي مَجْمَعِ 32

ويقول زهير بن أبي سلمى:

وَتُوقِدُ نَارَكُمْ شَرًّا وَيُرْفَعُ لَكُمْ فِي كُلِّ مَجْمَعَةٍ لِيَاءُ 33

وما كان للعربي من شيء أكثر من كلمة يقولها فتكون عليه ديناً، وقصص الوفاء عند العرب كثيرة تنوعت بطولاتها بين الرجال والنساء.

وقد اشتهر السموءل بن عاديء بالوفاء بعدما استؤمن بأدراع وأدأها لصاحبها امرؤ القيس فقطع طريقه الحارث بن ظالم طالبا إيَّها فمنعه السموءل من أخذها بعدما قتل أسيره فأنشد قائلا:

وَقَيْتُ بِذِمَّةِ الْكِنْدِيِّ إِنِّي إِذَا مَا دُمْتُ أَقْصَوَامٌ وَفَيْتُ

وَأَوْصَى عَادِيًا يَوْمًا بِالْأَلَا تَهْدِمُ يَا سَمَوْءُلُ مَا بَنَيْتَ

بَنَى لِي عَادِيًّا حِصْنًا حَصِينًا وَمَا كَلَّمَا شِئْتُ اسْتَقَيْتُ

وكذلك وصف الأعشى ابن السموءل عندما حرره من رجل كان قد هجاه، فمدحه ذاكراً قصة أبيه:

كُنْ كَالسَّمَوَّلِ إِذَا طَافَ الْهَمَامُ بِهِ فِي حَقْلٍ كَهَزْبِجِ اللَّيْلِ جَرَارِ

إِذْ سَامَهُ خَطْبَتِي خَسَفَ فَقَالَ لَهُ قُلْ مَا تَشَاءُ فَإِنِّي سَامِعٌ حَارِ

عَذْرٌ وَتُكَلِّ أَنْتَ بَيْنَهُمَا فَاخْتَرْ وَمَا فِيهِمَا حَظٌّ لِمُخْتَارِ

فَشَكَ غَيْرُ طَوِيلٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ أَقْتُلْ أَسِيرِي فَإِنِّي مَانِعٌ جَارِي

فَاخْتَارَ أَدْرَاعُهُ كِي لَا يُسَبِّ بِهَا وَمَنْ يَكُنْ وَعْدُهُ فِيهَا يَخْتَارُ 34

فكانت العرب إذا قطعت وعداً أو عهداً سهرت لأجل الوفاء به حتى وإن كان الثمن حرباً. فبلغ عندهم الوفاء مبلغاً راقياً فكانت إذا تحالفت مع قبيلة وأصبحت الأخيرة بضعف أو مصيبة ما يُمكِّن القبيلة الأخرى منها إلا أنها تغفو عنها وتحفظ ممتلكاتها نرى الحادرة يقول في هذه الأبيات:

إِنْ نَعَفْ فَلَا تُرِبْ حَلِيقَنَا وَتَكُفْ شَحَّ ثُقُوسَنَا فِي الْمَطْمَعِ 35

ومن هذه الأبيات وغيرها نستشف هذه القيمة الأخلاقية عند القداممما يجعل هذا المجتمع يرتفع عن القيم الدنيئة المستهجنة، ولعل أكبر دليل لإجلالهم لهذه القيم تخليدها في معلقاتهم وتقديسها بينهم، واحتقار كل فرد أو قبيلة تخالفها، يقول الشاعر:

عَدَرْتُ بِأَمْرِ كُنْتُ أَنْتَ دَعَوْتَنِي إِلَيْهِ وَبِئْسَ الشَّيْمَةُ الْعَدْرُ بِالْعَهْدِ
وَقَدْ يَنْزُكُ الْعَدْرُ الْفَتَى وَطَعَامُهُ إِذَا هُوَ أَمْسَى حَلَبَةً مَنَدَمَ الْقَصْدِ 36

وقول آخر:

لَقَدْ كَانَ فِيكُمْ لَوْ وَفَيْتُمْ لِحَارِكُمْ لِحَيٍّ وَرِقَابٍ عُزْدَةٌ وَمَنَاخِرُ
وهنا يستعتب الشاعر قومه على غدرهم إذ أضحو به صغاراً بين قومهم 37
وقال آخر في الوفاء يمدح قومه:

وَحَنَّ الَّذِينَ لَا يُرَوِّعُ جَارُنَا وَبَعْضُهُمْ وَلِلْعَدْرِ صُومٌ مَسَامِعُهُ 38
وتحرص العرب على الدفاع على الجار كحرصها على نفسها، يقول قيس بن عاصم:
لَا يَفْطِنُونَ لِعَيْبٍ جَارِهِمْ وَهُمْ لِحِفْظِ جَوَارِهِ فُطْنُ 39

ومن قصص الوفاء عند العرب قصة الحارث بن عباد لما اعتزل حرب البسوس فبعث ابنه بجير إلى المهلهل ليخبره فقتله المهلهل، فعند ما بلغه الخبر قال:

يَا بَجِيرَ الْحَيَاتِ لَا صَلُحَ حَتَّى تَمْلَأَ الْبَيْدَ مِنْ رُؤُوسِ الرِّجَالِ
وَتَقْرُ الْعُيُونَ بَعْدَ بُكَاهَا حِينَ تَسْقِي الدَّمَاءَ صُدُورَ الْعَوَالِي
أَصْبَحَتْ وَأَيْلُ تَعُجُ مِنَ الْحَرْبِ عَجِيجَ الْجَمَالِ بِالْأَنْثَالِ
لَمْ أَكُنْ مِنْ خَنَائِهَا عَلِمَ اللَّهُ وَأَنْتَ لِحَرَمِهَا الْيَوْمَ صَالِ
قَدْ تَجَنَّبْتُ وَإِلَّا كَيْ يَفِيضُوا فَأَبَتْ تَغْلَبَ عَلَيَّ اعْتِرَالِي
وَأَشَابُوا دُؤَابَتِي بِبَجِيرٍ قَتَلُوهُ ظُلْمًا بِغَيْرِ قِتَالِ

وبعدما انضم الحارث إلى قومه في يوم من أيام العرب يسمى قُصَّةً فكان بين يده المهلهل وهو لا يعرفه فطلب منه أن يدلّه على عدّي (المهلهل) مقابل حريته فأخذ منه المهلهل عهداً، فوافق الحارث فقال: أنا عدّي، فأحلى سبيله وقال:

لَهَفَ نَفْسِي عَلَى عُدِّيٍّ وَلَمْ أَغْ رِفْ عُدِّيًّا إِذَا مَكَّنْتَنِي الْيَدَانِ 4
ونرى الخنساء تذكر الوفاء عند أخيها إذا ما غدر أقرانه تقول:
سَمَحُ خَلَائِقُهُ جَزْلٌ مَوَاهِبُهُ وَإِي الدَّمَامِ إِذَا مَا مَعَشَرُ عَدُوًّا 40

4. المروءة:

وإذا تحدثنا عن الصفات الأخلاقية جمعناها في المروءة، فالمروءة أن تجتمع كلّ الصفات الحسنة في الشخص الواحد. وقد نراها جليةً عند عنترة بن شداد، ويكفي أن الرسول (ص) أعجب بأخلاقه لقوله عليه الصلاة

والسلام: (ما وصف لي أعرابي قط فأحببت أن أراه إلا عنثرة). وعنثرة ما هو إلا جزء من هذا المجتمع الذي سادت فيه هذه الأخلاق حتى وإن لم تجد بصفة كاملة فهي قد وجدت ولو بقلة نادرة.
ومن المروءة ما رأيناه عند عنثرة في البيتين السابقين فهو إذا خالط الناس أحسن إليهم، وإذا قدر لم يبطش بهم. ويقول أيضاً:

فَإِذَا شَرِبْتُ فَإِنِّي مُسْتَهْلِكٌ مَالِي وَعِرْضِي وَإِفْرٍ لَمْ يُكَلِّمْ
فهو رغم شربه للخمر فهي لا تفسد مروءته وعرضه وماله فهما محفوظان، ويقول:
هَلَا سَأَلَتِ الْقَوْمَ يَابِتَةَ مَالِكٍ إِنَّ كُنْتُ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي 41
يُخْبِرُكَ مَنْ شَهِدَ الْوَقَائِعَ أَتَنِي أَغَشَى الْوَعَى وَأَغْفُ عِنْدَ الْمُغْتَمِ
فهو غني بنفسه وأخلاقه فلا يحارب لأجل المغامم وإنما حربه من أجل المجد، ويقول عنثرة:
أَغَشَى فَتَاةَ الْحَيِّ عِنْدَ حَلِيلِهَا وَإِذَا عَزَا الْحَرْبُ لَا أَعْشَاهَا
إِنِّي أَمْرُوؤُ سَمَحُ الْخَلِيقَةِ مَا جِدُّ حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي مَأْوَاهَا
وَأَغْضُ طَرْفِي مَا بَدَتْ لِي جَارَتِي لَا أَتْبَعُ النَّفْسَ اللَّجُوجَ هَوَاهَا 42
فهو يغالب النفس الأمارة بالسوء بأنه لا يزور بيت جاره في غيابة بل يغض بصره حتى تواري جارته دارها، وبالصفة نفسها وصفت الخنساء أخاها صخرًا، فقالت:

لَمْ تَرَهُ جَارَةً يَمْشِي بِسَاحَتِهَا لِرَبِيَّةٍ حِينَ يَخْلِي بَيْتَهُ الْجَارُ 43
ومن الأنفة قول عنثرة وهو يصف عزته وأنفته، وتعففه عن صغائر الحياة يقول:
لَا تُسْقِنِي مَاءَ الْحَيَاةِ بِذَلِكِ بَلْ أَسْقِنِي بِالْعِرِّ كَأَنَّ الْخَنْظَلَ
وَلَقَدْ أُبَيِّتَ عَلَى الطُّوَى وَأَظْلَمَ حَتَّى أُنَالَ بِهِ كَرِيمَ الْمَأْكَلِ 44
فهو يرفض الحياة الدليلة ويجب أن يعيش عزيزاً حتى لو كان الثمن صعباً، فهو بصبره ينال طيب العيش.
خاتمة:

وبهذا نكون قد ألمحنا إلى الصفات الواجب اتباعها والقبض عليها والتأسي بها وغرسها في أجيالنا والتحفيز عليها، وبها نكون قد أحرزنا على مجتمع مثالي يستحق التنويه به والافتخار به.

الهوامش:

1. حنا فاحور: الجامع في تاريخ الأدب العربي - الأدب القديم، دارالجيل، بيروت، ط 1 (1982) ص 85.
2. أحمد محمد الحوفي: الحياة العربية من الشعر الجاهلي، مكتبة تحضة مصر وطبعها، ط 2 (1952) ص 240.
- 3-حاتم الطائي: الديوان، ط 1، دار الكتاب العربي، بيروت (1994) ص 79.
- 4- طرفة بن العبد: الديوان، تحقيق: الخطيب ولطفي صقال، المؤسسة العربية، ط 2 (2000) ص 56.

- 5- أبوتمام حبيب بن أوس الطائي: ديوان الحماسة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 (1998) ص211.
- 6- المرجع السابق، ص240.
- 7- حاتم الطائي، المرجع السابق، ص 17.
- 8- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي، دارالمعارف، ط11، بدت، ص 68.
- 9- أحمد محمد الحوفي، المرجع السابق، ص 241.
- 10- ديوان حاتم الطائي، ص 79.
- 11- عروة بن الورد: الديوان، تحقيق: أسماء أبو بكر محمد، دارالكتب العلمية، بيروت، ط (1998) ص83.
- 12- صالح مفقودة: القيم الأخلاقية للعربي من خلال الشعر الجاهلي، مجلة العلوم الإنسانية. جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، العدد الأول، نوفمبر 2001، ص 187.
- 13- امرؤ القيس: الديوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 5 (2004) ص 112
- 14- أحمد محمد الحوفي: المرجع السابق، ص 241 243.
- 15- حاتم الطائي: المرجع السابق، ص 56.
- 16- أحمد محمد الحوفي: المرجع السابق، ص 242
- 17- أوس بن حجر: الديوان، شرح محمد يوسف نجم، دار صادر للنشر، ط 3 (1979) ص 23.
- 18- أحمد بن الأمين الشنقيطي: طهارة العرب، ب ط، ب ت، ص 37 38.
- 19- طرفة بن العبد، الديوان، ص 41.
- 20- الخساء: الديوان، دار المعرفة، بيروت، الط 2 (2004) ص 16 17.
- 21- أحمد محمد الحوفي: المرجع السابق، ص 260.
- 22- أبو تمام: الحماسة، ص 22.
- 23- عنترة بن شداد: الديوان، شرح الخطيب التبريزي، دار الكتاب العربي، بيروت، الط 1 (1996) ص 128.
- 24- أبو تمام: الحماسة، ص 28.
- 25- عروة بن الورد: الديوان، ص 81.
- 26- أحمد محمد الحوفي: المرجع السابق، ص 261.
- 27- صالح مفقودة: المرجع السابق، ص 192.
- 28- أبو تمام: الحماسة، ص 11.
- 29- ديزيرهسقال، المرجع السابق، ص 94.
- 30- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ص 66.
- 31- أحمد محمد الحوفي: المرجع السابق، ص 261.
- 32- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي. ص 29.
- 33- أبو تمام، الحماسة، ص.
- 34- يحيى جبور، الشعر الجاهلي - خصائصه وفنونه، مؤسسة الرسالة، الط 5 (1407 هـ . 1982) ص 282.
- 35- زهير بن أبي سلمى: الديوان، شرح علي حسن فاغور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1 (1988) ص 21.

- 36- حنا فاحور: المرجع السابق، ص 58.
- 37- محمد النويهي: المرجع السابق، ص 221.
- 38- أبو تمام: الحماسة، ص 295.
- 39- محمد النويهي: المرجع نفسه، ص 225.
- 40- أبو تمام: المرجع نفسه، ص 92.
- 41- يحيى جبور: المرجع نفسه، ص 67.
- 42- الشنقيطي: المرجع نفسه، ص 39. 106.
- 43- الخنساء: المرجع نفسه، ص 47.
- 44- عنتر بن شداد: المرجع السابق: ص 11